قضية خاسرة !

بسبب هذه المشاكل دخل ذلك أبى فى قضايا كثيرة استمرت سنوات طويلة جدا وبدون أى فائدة . وكان هذا الساكن رجلا ثريا لاعمل له إلا البقاء فى بيتنا وسلم أبى قضية هذا السكن لمحام بعد الآخر وعندما أسترجع أنا الأمر اليوم أرى بوضوح أن هؤلاء المحامين لم يعاملوا القضية بصدق ولا راعوا فيها مصالح أبى وحقوقه فكل ما كان يهمهم هو مصالحهم الذاتية الشخصية .

فحاول أبى – على سبيل المثال – إخراج الساكن من بيتنا الذى لم نسكن فيه يوما واحدا فى حياتنا لاسيما وأن هذا الساكن كان واسع الثروة إذ له أملاك خاصة كثيرة وكان أبى قد استأمنه لهذا السبب عندما أجر له البيت وكان يقول عندئذ « إنه رجل شبعان وابن ناس » . وحاول أن يأتى له بسكن . آخر على حسابه بل عرض عليه أيضا أن يحصل على رخصة بناء لكى نبنى لنا دورا فوق « الفيلا » به شقة نسكنها ونستقل فيها وكان المستأجر يوقف كل هذه المحاولات بمساعدة محامين ابتكروا حيلا تلاعبوا بها على القوانين التى كانت تؤيد أبى وكان المستأجر يتصرف كأنه صاحب الملك . والحقيقة أن أبى كان دائما يأخذ الأمور بهدوء – ليس فقط فى أمر « الفيلا » هذه بل الأمور كلها – ويعرف كيف

أبى ومعه بعض الدارسين المصريين فى مدريد منهم
د . محمود مكى ، د . هلال ، د . أحمد هيكل ، د . مختار العبادى وآخرون .

يسيطر على مشاعره وكان لا يحزن لأى خسارة مادية أبدا فقد كان لايشغله حقيقه إلا عمله وعلمه ولكنه كان – فى حالة « الفيلا » إياها يحزن لأجل أمى فهو يعلم جيدا أهمية وجود بيت مريح بالنسبة لأى امرأة تجد فيه استقرارها ويحيط بها فيه أفراد أسرتها .

كانت مسألة السكن هذه تشغل ذهن أمى كثيرًا ، فالبيت الذى كنا ننزل فيه كان جميلا ومريحا وكنا نعرف كل سكان العمارة وهم ناس طيبون ولكن موقع العمارة كان لا يقدم راحة كافية لسكانها فى ذلك الحين ، إذ كانت العمارة محاطة بالمحلات التجارية والورش التى كانت تظل مفتوحة إلى قرب من طلوع الفجر وكان أصحاب هذه المحلات يفتحون الراديو بدون توقف إلى مواعيد متأخرة جدًا ، فكان من الصعب حقا أن يجد الإنسان راحة حقيقية أثناء الليل فكيف يصبح فى اليوم الثانى مستريحا لينجز ما خطط إنجازه خلال اليوم ؟ وفى هذا الوقت لم يكن قد صدر القانون الذى ينص على إغلاق المحلات التجارية فى موعد محدد ، فالمعروف أن هذا القانون لم يصدر إلاّ فى عصر الرئيس السادات فى أواخر السبعينيات . أما قبل ذلك فكان أصحاب هذه المحلات لهم مطلق الحرية فى إزعاج سكان جميع العمارات التى تحيط بهم . المهم صممت أمى على إيجاد بيت مريح لها وهذه فى المرات القليلة التى رأيت أمى فيها تصمم على رأى وتدافع عنه معارضة أبى الذى كان يريد الانتظار حتى يسترد « فيلا » الدقى . ولكنه

تفهم الأمر وقدّر موقفها وتركها تتصرف فى هذا الشأن وبعد قليل أيدها فى ذلك وأراح ذلك أمى من موضوع « الفيلا » الذى استمرت قضاياه ما يقرب من عشرين سنة وكان موضوع « الفيلا » وقضاياها بمثابة « التميمة » المستمر فى حياتنا وبيتنا .

أما عن الموضوعات الأخرى التى كنا نتحدث فيها فكانت إما متعلقة بحياتنا اليومية فى الكويت أو أحاديث نسترجع فيها شريط ذكريات حياتنا فى أسبانيا . وكنت أحيانا أذكر أبى بشدته فى تربيتنا أنا وأخى خلال جزء من الفترة التى قضيناها فى مدريد . إننى لم أكن ألومه أو أعاتبه عندما كنت أذكره بذلك لأنها كانت أياما مضت وكانت فى مجموعها أياما جميلة جدا . وكان دائما يرد علىّ قائلا : « نعم ، اعترف بأننى كنت شديدا معكما ولكن كان يجب علىّ أن أستعمل هذه الشدة ، لأننى كنت فى هذه الفترة أربيكما وكنت أريد أن تنشآ مصريين يحبان بلدهما وينتميان إليها وكنت أخشى كثيرا أن تنطبعا بسلوك وأفكار بلاد الغرب التى لا تنفع ولا تلائم المعيشة فى مصر . ثم إننى كنت أريد أن نكون سويا كأسرة دائما ولم يكن من الممكن أن أترك فرصة وجودى فى أسبانيا إذ كان هناك الكثير مما يجب علىّ أن أقوم به وأحققه » .

وقام أبى فعلا بعمل عظيم فى معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ويكفى أن أذكر هنا أنه جعل من هذا المعهد أهم مركز التقاء بين الشرق والغرب ونجح فى أن يعطى لهذا المركز العلمى

المصرى شهرة عالمية عالمية لاتزال حيّة حتى اليوم . ثم إنه نجح فى أن يغيّر نظرة الغربيين إلى ماهو عربى وإلى فترة وجود العرب فى الأندلس إذ كان الغرب ينظر إلى العرب دائما على أنهم أعداء لهم متأثرين بفكرة اختلاف الديانات . غير أبى هذا المنظور تماما وحتى اليوم يعترفون له هناك بهذا الفضل العلمى العظيم .

ومن الصعب هنا أن ننسى من عمل معه وساعده فى تحقيق هذه الأهداف الجديرة بالاحترام ، وكان أولهم الدكتور محمود على مكى – وهو أستاذ الأدب العربى بجامعة القاهرة الآن – ثم الدكتور مختار العبادى – وهو أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة الإسكندرية الآن – وكان هذان الاثنان قد حصلا على درجة الدكتوراه من أسبانيا أيام وجود أبى هناك ثم عينا بعد ذلك فى فترات متتالية وكيلين لهذا المعهد . كان هناك أيضا الفنان الرسام العظيم محمد صبرى الذى أثبت بمعارضه الكثيرة التى كان يقوم بها خلال وجوده فى أسبانيا مدى رقى الفن المصرى المعاصر . ومن الصعب هنا ألا يُذكر اسم الأستاذ عبد السلام عويس رحمه الله الذى كان يعمل سكرتيرا للمعهد طوال مدة إقامة أبى هناك وكان عونا كبيرا وفعالا إذ كان ملما بجميع القوانين السارية فى مصر وكان مرجعًا أساسيا لأبى يعرفه دائما بما يمكن القيام به ، كان إداريا ممتازا ونعم المساعد والصديق .

وأذكر من الفنانين المصريين الآخرين الذين زاروا المعهد المصرى بمدريد وكانوا غالبا قد حصلوا على منح دراسية مثل الفنان العظيم

حامد ندا رحمه الله ، ثم الفنان السكندرى المبتكر سيف وانلى الذى أهدى المعهد صورة كبيرة رسمها على جدار من جدران الطابق الأول من مبنى المعهد وكان حجمها يغطى الجدار كله من الأرض حتى السقف ، وأذكر أننى كنت أقف بجواره ساعات طويلة أتفرج على رسمه هذا وهو لا يشعر بوجودى بجواره ، إذ كان منهمكا فى عمله .

وكذلك مر على معهد مدريد فنانون مثالون مثل عبدالقادر مختار ولويس فلسطين رحمه الله ، وكلهم بدون استثناء أهدوا المعهد عملا أو أكثر من أعمالهم اعترافا بالفترة المثمرة التى قضوها هناك ، أذكر على سبيل المثال تمثالا لفلاحة مصرية نحته مختار – على ما أظن فى حجم آدمى ، كان فى حديقة المعهد وكان فى كل مرة أمر بجانبه يلفت نظرى ، لأنه كان له وجود غريب ، وعند وصولنا إلى مدريد كان حجمى أصغر بكثير من التمثال ولكننى أصبحت أطول منه عند مغادرتنا البلد . كم أتمنى أن أرجع وأرى كل هذه الأشياء إلا أن أبى عاد لزيارة أسبانيا بعد مغادرتها مرارًا ، وعادت أمى مرتين ولكننى لم أزرها – مع الأسف – منذ أن غادرتها فى الستينات .

وهناك أسماء أخرى كثيرة ارتبطت بمعهد مدريد مثل : الدكتور أحمد هيكل والدكتورة علية العنانى والدكتور الطاهر مكى والدكتور أحمد شعراوى والدكتور صلاح فضل وأسماء أناس آخرين كثيرين حصلوا أيضًا على درجة الدكتوراه فى أسبانيا ، وتأثروا بدون شك

بالجو الفكرى الذى كان أبى قد أنشأه هناك ، إذ وصل جميعهم إلى أعلى المناصب العلمية فى مصر . (أرجو أن يعذرنى كل من قد أكون نسيت ذكر اسمه فهو نسيان غير مقصود) .

وأحب أن أذكر هنا شيئا يخفى على الكثيرين اليوم عندما يذكرون المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، وهو أن أبى كان صاحب فكرة إنشاء معهد مصرى فى مدريد يقوم بدراسة اللقاء بين حضارتى الشرق والغرب ، إذ كان قد تقدم بمشروع مكتوب بهذه الفكرة فى الأربعينات للدكتور طه حسين الذى كان يعمل فى هذا الوقت وزيرًا للمعارف ، وقرأ د . طه حسين المشروع المقترح ، ولأنه كان ذا بصيرة وأفق ذهنى واسع وافق مبدئيا على المشروع . واستمر أبى وراء مشروعه هذا حتى أوجدت له الوزارة الميزانية المطلوبة ، ثم بعد بضع سنوات تحقق مشروع المعهد وأصبح له مكان ووجود ، وكل ما أريد توضيحه هنا أنه لولا تفكير أبى فى مثل هذا المشروع ولولا تتبعه له لبقى بغير إنجاز . إن فضل د . طه حسين فى هذا كله أنه تحمس للفكرة وأيدها ، وهذا وحده جدير جدًّا بالتقدير الكبير له ، وحدث أنه بعد إنشاء المعهد فى عام ١٩٥٠ لم يعيّن أبى أول مدير له ، بل عينت الوزارة الدكتور عبد الهادى أبو ريدة – أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة – رحمه الله - ، وكان معه الدكتور عبد العزيز الأهوانى – أستاذ الأدب العربى بجامعة القاهرة رحمه الله وكيلا للمعهد وتبعه الدكتور على سامى النشار – الأستاذ بجامعة

الاسكندرية ، فبقى سنة عُيّن بعدها أبى لمدة سنة واحدة فى عام ١٩٥٤ ، ثم عاد إلى مصر وعيّن هناك مرة أخرى فى عام ١٩٥٩ حيث استمر مديرًا لهذا المعهد لمدة تبلغ عشر سنوات .

ويجب هنا ذكر أن كلاً من الاستاذين – الأهوانى وأبى ريدة – كانا من أصدقاء أبى الحميمين ، وكان يجمع بينهم نفس الاهتمامات العلمية ، ثم كذلك انسجام على المستوى الشخصى والعائلى ، واستمرت هذه الصداقات وثيقة حتى آخر أيام حياتهم .

أما بالنسبة للدكتور طه حسين وعلاقته بأبى فكانت علاقة جيدة رغم قسوة معاملة عميد الأدب العربى لمن حوله . ومن الأشياء التى لم ينسها أبى أبدا للدكتور طه حسين أنه هو الذى رشحه فى البعثة التى سافر بها إلى أوربا ونال بها درجة الدكتوراه . وحكى أبى أنه كان عليه أن يقوم بكشف طبى كامل قبل سفره للخارج (كان شيئا مثل القومسيون الطبى الحالى) ونجح أبى فى جميع الفحوصات إلاّ فى كشف النظر فكان طوال عمره يعانى من نظر ضعيف ، وكان هذا العجز سيمنعه من السفر . فذهب للدكتور طه وحكى له ما حدث وكان – على ما أظن فى وزارة المعارف حينذاك – فأمر بالإعفاء من شرط النظر .

وكان مقر المعهد المصرى فى بداية الأمر فى « فيلا » مؤجرة فى ١٤ شارع اسمه ماتياس مونتيرو بحى راق فى مدريد اسمه « الفيزو » . وكبرت أهمية المعهد خلال وجود أبى هناك وزادت اهتماماته واهتمام الناس به ليس فقط فى أسبانيا بل على المستوى

الأوربى ، إذ لم يستطع أى مستشرق بمرور الزمن أن يستغنى عنه فرأى أبى أن الأمر أصبح يستلزم مقرًا جديدًا أكبر تمتلكه مصر ويبنى على أرض تابعة للحكومة المصرية . فسعى فى سبيل ذلك حتى حقق غرضه ، إذ خصصت الحكومة أرضًا ملكا لها فى نفس الحى ، وقام بتصحيح رسومه وبنائه مهندسون مصريون على أن تستوفى فيه كل المرافق والمستلزمات لمثل هذه « القلعة الثقافية » ، فكان به مبنى رئيسى للمكاتب وغرف كبيرة للمحاضرات حيث تدرس هناك اللغة العربية حتى الآن ، وغرف للمكتب وأماكن كافية لحفظ المخطوطات الكثيرة وغرف للمطالعة وصالونات لاستقبال الزوار ، وفى الدور الأعلى خصص سكن لأى مصرى يعيّن مديرا للمعهد ، وكان لهذا السكن مدخل منفصل عن مدخل المعهد . ثم أعد الدور الأسفل منه لمطبعة من طابقين إذ كان للمعهد منشوراته الخاصة ومجلته الخاصة .

كان هذا جزءًا مما قام به أبى من الناحية الإدارية فى مدريد ، أما أنشطة المعهد فكانت تشمل تدريس اللغة العربية على مستويين وكانت تعقد ندوات ومؤتمرات علمية كثيرة ؛وكانت المكتبة دائما مليئة بالقراء ، وكان يحتفل فيه بالمناسبات القومية والدينية ، وكان يسوده دائما جو لطيف أسرى ، إذ كان يعتبر نفسه كل من يعمل فيه عضوا من أسرة واحدة ، وكانت تشمل أسرة المعهد الموظفين المصريين وهم أبى ووكيل المعهد وسكرتير المعهد ثم العاملين الاسبان ، وكانوا يقومون بالأعمال الإدارية ثم المسئولين عن الحراسة

إذ كانت تسكن فى أسفل المعهد أسرة حارس المعهد التى مازلنا نراسلهم حتى الآن ، ثم كان هناك العاملون بالمطبعة وهم موظفون محليون من أصل مغربى .

أما عن إنتاج أبى العلمى على المستوى الشخصى فقد حقق الكثير ، ففى هذه الفترة ألف كتبًا كسبت صيتاً كبيرًا فى مجال المتخصصين فى تاريخ الأندلس الإسلامى وعلى سبيل المثال أذكر كتاب فجر الأندلس (١٩٥٩) ورحلة الأندلس (١٩٦٣) ، وتاريخ الجغرافية والجغرافيين (١٩٦٧) ، وشيوخ العصر فى الاندلس (١٩٦٥) ونور الدين محمود : سيرة مجاهد صادق (١٩٧٤) وأصدر ترجمات عن أعمال أدبية أسبانية معروفة مثل ترجمة ثورة الفلاحين للبوبى دى فيجا (١٩٦٧) وترجمته لكتب تاريخ الفكر الأندلسى لا نخيل جونثاليث بالنثيا (١٩٥٥) . ثم أبحاث عديدة قدمها فى مؤتمرات ، ثم استكمل بعد ذلك بعض الكتب التى كان قد بدأها فى فترة إقامته فى مدريد مثل كتاب معالم تاريخ المغرب والأندلس (١٩٨٠) ، وكتاب التاريخ والمؤرخون : دراسة فى علم التاريخ (١٩٨٤) ، وتاريخ المغرب وحضارته (١٩٩٠) ، وتاريخ المسلمين فى البحر المتوسط (١٩٩١) الطبعة الثانية ، ومؤلفات أخرى لا تحضرنى الآن . أتذكر كذلك أنه كان يكتب أحيانا مقالات لجريدة الأهرام ، وكانت هذه المقالات غالبا ما يقدم فيها كتبا جديدة نشرت فى أوربا ، وكانت معظمها كتبا أدبية ، وكان أحيانا يؤلف قصصا أدبية ينشرها فى الأهرام أيضا مثل القصة

الرمزية « إدارة عموم الزير » التى نجحت نجاحا مذهلا وحُولت بعد ذلك إلى نص مسرحى عُرض فى مسرح الثقافة الجماهيرية .

ويخيّل إلى – عندما أرى أسماء مثل هذه المؤلفات وهى تمثل جزءا فقط من مؤلفاته – أنه كانت لأبى خطة عمل أو مشروع ثقافى علمى على المستوى الشخصى ، كان يريد أن يحققه وحققه بالفعل ، ويتضح ذلك عندما نتأمل بيليوغرافيا أعماله كلها ، فهى بدأت بتخصصه الدقيق – وهو تاريخ الأندلس – ثم توسعت لتصبح تاريخ الإسلام ثم ألّف عن تاريخ مصر المعاصر ، ثم اتجه نحو الكتابات الدينية فى سنواته الأخيرة .

أما طريقة عمله أثناء فترة مدريد ، فكان كعادته يقوم بالعمل الإدارى المتصل بالمعهد صباحا ، ثم يعمل فى دراساته العلمية بعد الظهر ابتداء مما يقرب من الثالثة إلى ما بعد الثامنة والنصف أو التاسعة ، فكانت أمى تكلمه بالتليفون – إذ كان يعمل بمكتبه فى المعهد – وتذكره بأنه يجب أن يتمم عمله ويرجع إلى البيت . وأظن أن تدخل أمى وتنظيمها لحياته كان له تأثير على تنظيم خطة عمله . وبالمناسبة كان يعمل فى مكتب بجواره صديقه الحميم الدكتور محمود على مكى – وهو عالم آخر تخصص أيضًا فى الأندلس ليس فى تاريخه بل فى أدبه إن كان من الممكن تقسيم التخصصات فيما يخص مناهج العلوم الإنسانية ، وكان حبهما للعلم ومشاركتهما نفس التخصص قد أضفى صداقتهما قوة جعلتها تستمر فى الخمسينات إلى أن توفى أبى فى ١٩٩٦ .

أبى مع د . مكى ، د . علية عنانى ، د . أحمد هيكل ، د . هلال
فى حديقة المعهد المصرى بأسبانيا .